مشاركة الأدب الانجليزى
فى الدراسات العربية
نقلا عن « برنارد لويس »
للأستاذ عبد الوهاب الأمين

٢ — بداية الاستشراق

لقد رأينا كيف ذهب العلماء الإنجليز فى القرون الوسطى إلى أسبانيا وصقلية لتلقى العلوم من العرب ، وكيف نشروا ما اكتسبوه بعد عودتهم إلى انجلترا . وسنتطرق الآن إلى تطور جديد فى الدراسات العربية ، وهو ظهور ما ينبغى أن يسمى أوائل المستشرقين بالمعنى الذى تؤديه كلمة الاستشراق فى العصر الحاضر . فقد حدثت تغيرات كبيرة فى خلال السنين التى مرت على الزمن الذى مرّ بين الدور الذى درسناه فى حديثنا السابق ، والدور الذى سنأتى إليه الآن . فتقدمت أوربا تقدماً ذا شأن فى العلم والمعرفة ، وفقد العرب تفوقهم القديم ، ولم يعد من الضرورى للدارسين من الأوربيين أن يتطلعوا إلى مدرسين من العرب ، ليتلقوا منهم العلوم العامة ، وأخذنا نشاهد نوعاً جديداً من الاستشراق ، وهو ذلك النوع الذى يعتبر أساً للاستشراق الحديث ؛ فقد أخذ الباحث الإنجليزى يدرس العربية لا لتحصيل ما يمكن أن يأخذه من العالم العربى من فلسفة وعلم ، بل من أجل الثقافة العربية نفسها . وللمرة الأولى شرع الإنجليز فى دراسة اللغة العربية والآداب العربية دراسة جدية . وكان عملهم — كعمل المستشرقين المحدثين — ذا نفع للعرب بقدر نفعه للفرنك ، وهو ينطوى على جمع القواميس العربية والنحو والصرف ونشر المخطوطات العربية — قبل أن يتم طبعها فى الشرق بزمن طويل — والبحث العلمى فى تاريخ العرب وآدابهم ، وغير ذلك من مظاهر النشاط التى تدخل فى هذا المضمار . وقد بدأت هذه الحركة فى القرن السابع عشر ، وفى هذا القرن أنشئ منصب أستاذية اللغة العربية فى جامعتى اكسفورد وكامبردج ؛ وأخذ الأساتذة الإنجليز يدرسون اللغة العربية لعدد من المتشوقين لها من الطلاب ، وطبعت أوائل الكتب العربية فى انجلترا . وعلينا أن نأتى بشىء من التفصيل لحياة بضعة أفراد من ذوى المشاركة فى هذه الأعمال :

إن الرجل الذى يعرف بصورة عامة بأنه « أبو الدراسات العربية » فى انجلترا هو « وليم بدويل » (١٥٦١ — ١٦٣٢) وله مقالة طريفة يؤكد فيها أهمية اللغة العربية وضرورة تعلمها ، وهو يصفها بكونها « لغة الدين الوحيدة ، واللغة الرئيسية للدبلوماسية والأعمال من الجزر السعيدة إلى بحار الصين » . وتكلم عن نفعها فى الآداب والعلوم . ولقد كان لبدويل بعض الشهرة فى عصره ، وعرف فى جميع أوربا بأنه عالم بالعربية ، وكان أهم آثاره معجما عربياً فى سبعة مجلدات لم يطبع لسوء الحظ . وفى وسعنا أن نذكر بين كتبه بعض الأصول العربية التى طبعت فى انجلترا ، وبعض الدراسات عن القرآن ، ومعجما للألفاظ العربية المستعملة فى اللغات الغربية من العهد البيزنطى إلى عهده هو

وهناك شخصية أخرى هى شخصية « أدموند كاستل »

نريد علماء لا نشغلهم بالتقليب ولا يشغلون أنفسهم بالدرجات والرتب والأوسمة واتخاذ التدريس وسيلة إلى الجاه الحكومى على صورة من الصور . علماء يحج الناس من مختلف البقاع للتشرف بالاستماع إليهم والمباهاة بلقائهم واتخاذ مؤلفاتهم مصابيح للاهتداء ومراجع للاقتداء

وعندى أن هذا سيكون ميسوراً لجامعة الإسكندرية أكثر من جامعة القاهرة ؛ ذلك أن القاهرة ، حيث تتجمع فيها أندية السياسة والصحافة والأحزاب والألقاب وألوان الجاه ، لن تفتأ تجذب إلى جاهها رجال الجامعة والتعليم . أما الإسكندرية فهى بمنجى عن هذا الجاه . فى الإسكندرية الهدوء والصفاء وزرقة السماء والماء — الأمر الذى ينشده العلماء ولا يجدونه فى القاهرة الصاخبة المتقلبة الضخمة

فعلى رجال الدولة — والأمر كما أوضحنا — أن يهيئوا لجامعة الإسكندرية ذلك الجو الجامعى ، وتلك البيئة العلمية الحقة ، لكى تستعيد مفاخر جامعة الإسكندرية القديمة

عبد الله عبد

(١٦٠٦ — ١٦٨٥) وهو أحد أوائل أساتذة كامبردج فى اللغة العربية ، وقد كان الأثر الذى أفنى فيه حياته هو (قاموس اللغات السامية) ، استنفد تصنيفه منه ثمانية عشر عاماً ، وطبع لأول مرة فى سنة ١٦٦٩ . ويتكلم مؤلفه فى مقدمته عن « الإثنى عشرة عاماً التى انقضت فى العمل المستمر لما يزيد على ١٦ أو ١٨ ساعة فى اليوم — ونادراً ما قل عن هذا المقدار — من السهاد ، وضنى الجسم ، وضياع المـال » . وقد كان هذا القاموس — وهو الأول من نوعه — عظيم الأهمية وأعيد طبعه عدة مرات فى انجلترا وأوربا . ونذكر من جملة آثار كاستل الأخرى مجالة عن أهمية اللغة العربية ، وتعليقاً على ابن سينا ، ومجلد أشعار عربية مهدى إلى الملك شارلس الثانى ملك انجلترا

ومنهم « جون كريفس » (١٦٠٢ — ١٦٥٢) ، وهو أحد الرياضيين المشهورين . وكان وقتاً ما أستاذ علم الهيئة فى جامعة اكسفورد . وكان كثير الأسفار إلى الشرق الأدنى وعلى الأخص إلى مصر ، ودرس اللغة العربية والفارسية دراسة جدية ، واقتنى مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية والفارسية ، والنقود والجواهر ، وطبع أجرومية صغيرة للغة الفارسية . وكان اهتمامه الرئيسى فى الناحية الرياضية من أدب المسلمين فنشر عدة نصوص ودراسات فى هذا الموضوع ، وكان أخوه « توماس كريفس » يعرف العربية أيضاً والفارسية ونشر بضع مقالات

ونذكر من جلة العلماء فى العربية الآخرين فى القرن السابع عشر « إبراهام ويلوك » وهو أول أستاذ للغة العربية فى جامعة كامبردج ؛ و « ساموبل كلارك » صاحب مجالة فى القريض العربى ومفردات بعض أسماء الأماكن العربية ؛ و « بريان والتون » الذى طبع الإنجيل بعدة لغات شرقية ؛ و « دَدْلى لوقتس » وهو أحد علماء وفقهاء القانون الإرلندى . وقد لعب « جون سلدان » (١٥٨٤ — ١٦٥٤) ، السياسى القانونى دوراً مهماً فى الحياة الإنجليزية فى ذلك العهد ، وكان يعرف عدة لغات شرقية منها اللغة العربية فضلاً عن معلوماته الأخرى . وقد نقح ونشر بعض النصوص العربية التاريخية ، وترك وراءه مجموعة من المخطوطات الشرقية

ولقد كان أعظم العلماء بالعربية فى ذلك الحين بلا منازع هو « ادوارد بوكوك » (١٦٠٤ — ١٦٩١) الذى كان أول من شغل منصب أستاذ اللغة العربية فى جامعة أكسفورد ، وأول المستشرقين الأوربيين الذين قاموا بأعمال من الدرجة الأولى حقاً ؛ فقد بدأ بوكوك دراسته للغة العربية فى أوائل عمره ؛ وكان وليم بدويل يرعاه ، كما قام « مانياس باسور » — وهو أحد النازحين من ألمانيا بسبب الاضطهاد — بتعليمه مدة من الزمن فى جامعة أكسفورد . وذهب فى سنة (١٦٣٠) إلى حلب حيث قضى هناك خمس سنوات أتقن فى خلالها اللغة العربية كتابة ولفظاً ، واقتنى مجموعة نفيسة من المخطوطات العربية جاء بها معه عند عودته إلى اكسفورد ، وبذلك أنقذها من التلف الذى كان من المحتمل أن يحل بها ، وأنشأ لنفسه صداقات مع كثير من الحلبيين وعلى رأسهم « الشيخ فتح الله » أحد العلماء الذين درس عليهم ، وقد بقى صديقاً له مدى حياته .

وفى سنة ١٦٣٦ عند ما عاد بوكوك إلى انجلترا عين فى المنصب الذى أنشئ حديثاً للغة العربية فى أكسفورد ، حيث حاضر فى الأدب العربى وقواعد اللغة العربية ، وبدأ فصوله تلك بمحاضرة عن أهمية اللغة العربية والأدب العربى . وشرع فى سلسلة محاضرات يدرس فيها أقوال الإمام على .

وفى سنة ١٦٣٧ زار مصر للمرة الثانية بنية الحصول على معلومات جديدة ومخطوطات جديدة ، وقد عاد إلى أكسفورد فى سنة ١٦٤١ وخصص أيام حياته الأخيرة للعمل المنتج فى انجلترا ، وكان « جون كريفس » الرياضى قد صاحبه فى رحلته الثانية .

وفى خلال إقامته الطويلة فى أكسفورد — حيث كان يجلس فى ظل شجرة التين التى جاء بها معه من سوريا ، والتى لا تزال موجودة إلى الآن ، وهى أقدم شجرة من نوعها فى انجلترا — أخرج بوكوك عدداً كبيراً من الكتب المهمة نذكر منها ما يلى :

١ — « نموذج من تاريخ العرب » : وهو نصوص من تاريخ أبى الفرج ، مردفة بسلسلة من الدراسات المستفيضة عن النواحى المختلفة لتاريخ العرب ، وعلومهم ، وآدابهم ، ودينهم . وهذا الكتاب من أهم آثار المستشرقين ، وظل يحتل هذه المنزلة لدى العالم مدة طويلة . طبع فى أكسفورد سنة ١٦٤٩ وأعيد طبعه فى سنة ١٨٠٦

٢ — لامية العجم : وهى طبعة انتقادية لقصيدة الطغرائى الخالدة ، وقد أرفقت بترجمة وشروح وملاحظات ، وطبعت فى أكسفورد سنة ١٦٦١

٣ — المختصر فى تاريخ الدول : وهو النص الكامل لتاريخ أبى الفرج مع ترجمته .

لقد وسم « بوكوك » بحياته وآثاره دوراً من أدوار الدراسات الأوروبية الشرقية بميسمه ، وكان ذا شهرة مستفيضة فى زمنه ، ويدين له جميع العلماء الذين خلفوه بدين كبير . وكان العلماء فى جميع أنحاء أوربا والشرق يكتبون إليه طالبين المعونة والإرشاد ، ويفد إليه العدد الكبير من الطلاب من البلاد القصية — كروماتيا مثلاً — إلى أكسفورد ، لدراسة اللغة العربية على يد أعظم أساتذتها الأحياء فى أوربا . ولقد وصفه قرينه فى معرفة اللغة العربية المستشرق الهولندى كوليوس أستاذ اللغة العربية فى جامعة ليدن نفسه بأنه « لا يدانيه أحد فى عالم الاستشراق » . وقد ترك زيادة على الكتب التى مر ذكرها عدداً من الدراسات الأخرى ومجموعة من (٤٢٠) مخطوطة اقتنتها بعد موته مكتبة أكسفورد ولا تزال هناك حتى الآن ، وهى تكون جناحاً ذا قيمة من القسم العربى من تلك المكتبة .

ولقد خلف ستة أبناء كان أكبرهم — واسمه إدوارد بوكوك أيضاً — (١٦٨٤ — ١٧٢٧) قد تابع خطة أبيه واعتنق الدراسات الشرقية ، وقام بطبع عدة كتب من ضمنها الطبعة التى لم تكمل لتاريخ مصر لعبد اللطيف ، وترجمة لإحدى خوالد ابن طفيل الفلسفية

وعلى ذلك كان القرن السابع عشر دور تطور عظيم فى تاريخ الدراسات العربية فى انجلترا . ويمكن إرجاع سبب الاهتمام الجديد بالدراسات الشرقية إلى عدة عوامل يأتى العامل اللاهوتى فى أولها ولا شك ، فقد كان من المفهوم فى ذلك الحين أن اللغتين العربية والعبرية متقاربتان كل التقارب . ومن المؤمل أن تؤدى دراسة اللغة العربية إلى إلقاء ضوء جديد على « العهد القديم » . وأوغل من ذلك فى الأهمية هو الإدراك الجديد لمنزلة اللغة العربية والتاريخ العربى من الوجهة الثقافية . ولقد شهد العصر المتقدم عهد إحياء جديد للدراسة على أوسع معانيها ؛ فشملت الاهتمام الجديد باللغات والدراسات الكلاسيكية ، وكان من الطبيعى أن يدرك طلاب التاريخ البشرى والمدنية أهمية اللغة العربية العظمى بين تواريخ الإنسان ، وأن يعملوا على طلب المزيد من معرفتها . وقد كتب كل من بدويل وكاستل وبوكوك جميعاً مقالات عن أهمية اللغة العربية بصورة عامة ، والحاجة إلى أن يدرسها رجال أكفاء

وينبغى أن نذكر أخيراً الملاقات المستجدة فى التجارة والسياسة بين انجلترا والشرق الأدنى ، وما أطلقته من مصالح ومناسبات ، فبفضل تلك المناسبات أتيح لبوكوك أن يقوم برحلتيه المثمرتين إلى الشرق ، وكانت تلك المصالح متسعة الأرجاء ولم تقتصر على رئيس الأساقفة « لور » ولم يكن هو الوحيد الذى اهتم بنشر الدراسات العربية فى انجلترا ، والمتبرع بالكرسى الأدبى للغة العربية فى اكسفورد

وبالرغم من الاضطرابات التى أحدثتها الحرب الأهلية فى نهاية القرن السابع عشر ، فإن هذا العصر كان جديراً بالاعتبار ، فقد تألفت فيه مراكز للدراسات العربية فى اكسفورد وكامبردج ، وطبع عدد كبير من الكتب ، وأنشئ عالم جديد أنتج فيما تلا ذلك من العصور عدداً متتابعاً من الباحثين المشهورين الذين زادت آثارهم فى ثروة الميراث الثقافى لكل من العرب وأوربا ، وسنتكلم عنهم فيما يلى من هذه الفصول .

عبد الوهاب الأمين

الأسبوع الثانى

سجل تجارى ٢٩٧٣